الى معالي وزير المعارف

التعـــليم الزراعي

— ٣ —

« هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره ؛ إنما يصلحه تربية ذوقه وإرهاف حسه . فان صاحب الذوق يبني الدار الجميلة ويخط الحديقة البهيجة ؛ أما فاقده فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة »

(الزيات)

ثانيا : المدارس المتوسطة

الآن أطوي صفحة المكتب الزراعي وإنه ليروعني أن يعيش هذا الفرع من التعليم الزراعي خمس سنوات لا يحس به رجل من يعنون أنفسهم بالبحث في فروع التعليم ، وإن كثيراً ممن اشتغلوا بالتعليم الزراعي لا يعرفون عن المكتب الزراعي إلا قطرات لا تبل غلة . ولقد سألني صديق من ذوي الرأي والمكانة في دهشة : « وماذا عسى أن يكون المكتب الزراعي ؟ » قلت : « هذا نوع من التعليم أسدلت عليه ستجف كثيفة خشية الفضيحة »

وبعد فلا عجب إن امتد الزمن بالتعليم الزراعي خمساً وعشرين سنة لا يفيق من غفوته ولا يتخفف من ثقله ، فهو لُقّى في ناحية من الوزارة لا يستشعر وجوده أحد ، ولا يجد هو من يهتك عنه أستاره ليتكشف أمام الملأ في غير تمويه ولا زَيْف . وأنا حين أجرّد القلم ليرفع صوت التعليم الزراعي وينشر شكاته على أعين أولي الأمر لا أبتغي سوى كلمة الإنصاف أول قول الحق

النظام و « فوضى النظام »

لا ريب فالطالب الزراعي خُلُق شاء هو ، أو شاء له القدر ، أن يتحلل من أثقال المدرسة ليقضي سنوات في مدرسة ليست هي في رأيه مدرسة ولكنها بعض مُتع الحياة ؛ وفي خاطره أنه سيطرح نصب الاستذكار وكدّ المطالعة وعناء الدرس ... سيطرحها جميعاً من وراء ظهره ، لأنه سيكون فلاحاً نظيفاً يغدو إلى الحقل ويروح إلى المدرسة ينعم بالهواء الطلق ويمرح في الفضاء المتفسح ، وينشق الحرية اللانهائية ؛ يأكل وينام ويلعب ويهدأ متى شاء وأنى أراد ؛ ثم هو بعد ذلك لا يستشعر بأساء الاختبار ، ولا شدة الامتحان ، ولا غلظة الدرس ، ولا جفاء المدرس ... ثلاث سنوات تمر مرّ السحاب ، فإذا هو رجل يحمل بين يديه (دبلوماً) تتفتح أمامه مغاليق الحياة ، وتهش له مصالح الحكومة !

يا ما أحلى هذه الأحلام حين تطيف بخيال الفتى وهو غِرّ قد وقفت به همته عن أن يبلغ مبلغ الرجال ، أو أعجزته الوسيلة عن أن يسمو إلى مراتب التعليم العليا ، أو ضاقت به فرج التفكير عن أن يصل إلى الغاية !

هذا هو الطالب الزراعي ، وإن نزوات الشباب لتتوثب في رأسه توحي إليه بأنه يوشك أن يكون رجلاً يعرف كل شيء في حين أنه يخرج من مدرسته لا يعي شيئاً ، وهو أجهل ما يكون في الزراعة التي وقف عليها ثلاث سنوات من عمره

ويفتقر الطالب في خضم هذه اللجة فتصفعه الحقيقة المرة - صفعة تطير لها هذه الرؤى الجميلة بعد أن يكون قد استشعر لذتها حيناً من الزمان ؛ فتعود إليه نكسة اليأس حين يرى أن المدرسة التي فزع منها هي المدرسة التي زُجّ بنفسه فيها ؛ فهو هنا سيقرأ ويكتب ويطالع ويجلس على مقعد في فصل يسيطر عليه مدرس ، ثم يتذوق مرارة الدرس وفدح الامتحان ونكد الرسوب و ... فإذا هو هو الطالب الذي أخفق ويخفق مرات ومرات ، الطالب الذي حطمته السنون العجاف ، الطالب الذي جاء ليموت في التعليم الزراعي أو يموت به التعليم الزراعي

وليت كل طلاب المدرسة من بيئة واحدة وثقافة واحدة ووسط واحد ، إذن لاستطاع المدرس أن يوائم بين نوازعهم ورغباتهم ، أو أن يجد الحيلة فينفذ إلى عقولهم وأخلاقهم . ولكن هذا الجمع — وا أسفا — خليط لا يمت الأول إلى الآخر بسبب ؛ فالفصل الواحد يضم بين جدرانه أشتاتاً من الطلبة تضطرب في غير ترابط ولا وفاق : فالحجرة الواحدة تجمع بين الطالب في الخامسة عشرة والطالب في الخامسة والعشرين ، وتؤلف بين من نال شهادة إتمام الدراسة الابتدائية هذا العام وبين من قضى سنوات ثلاثاً في السنة الرابعة الثانوية ، وتربط بين من هو ما يزال في فتوة العقل ومن نخر اليأس حشاشة قلبه ؛ وتلقى في ركن الفتى الريفي الذي رأى النيط وجلس إلى الفلاح ، وفي الركن الآخر الشاب الذي درج في المدينة وشب وترعرع ونما واشتد في حضن الحضارة الرفيق لا تربطه بالريف آصرة ... وهكذا يصطدم المرء

— أول ما يتغلغل فى المدارس الزراعية المتوسطة — بهذا الخلل الذى أسميه فى غير تحرج « فوضى النظام »

و « فوضى النظام » تتسلل إلى المدرسة منذ أول يوم من أيام السنة الدراسية ، حين تفتح المدرسة أبوابها على مصاريعها ، لا تدفع طالباً ولا ترفض طلباً ؛ ولقد تظرف معى صديق فقال : « لعل كل هم مدارس الزراعة أن تستنفد ما عندها من استمارات الدخول طلباً للربح ، كدأبها فى منتجاتها ومحاصيلها ، ولا عليها بعد ذلك ! » وقال آخر : « وإنه ليتراءى لى لو أن (عربجياً) تقدم إلى مدرسة زراعية لقبلته بين طلبتها فى غير غضاضة ، ولا أنفة ! » هذه عبارات كانت تحز فى نفسى وتؤجج فى صدرى ، لأن فيها التهكم اللاذع والسخرية المرة . وليت شعرى أى مدرسة فى العالم تفتح أبوابها لكل من كان (أفندياً) يتأنق فى البذلة والطربوش ؟

وتدخل « فوضى النظام » المدرسة فتتشعب لتفهم القسم الداخلى والقسم الخارجى ، والصلة بين المدرس والطالب ، وبين المدرس والناظر ، وبين المدرسة وأولياء أمور الطلبة ، و ... ثم إلى بيت المدرسين

إن الاضطراب الذى رأينا — من قبل — بين جدران الفصل نشعر به أيضاً فى أركان (العنبر) فى القسم الداخلى ، فهناك مهزلة العلم يمثلها المدرس وتلامذته على مسرح الفصل حين يجهد نفسه ليتسلل إلى عقول التلاميذ ، فلا يجد السبيل ، وقد ضرب بينه وبينهم بسور لا يستطيع أن يظهره إلا لماماً ؛ وهنا مهزلة الأخلاق يمثلها التلاميذ وحدهم على مسرح (العنبر) ، وإدارة المدرسة إما لاهية وإما عاجزة ، ولها عذر ؛ فهى لا تستطيع أن تسدل حجاباً بين الطالب الكبير والطالب الصغير وهما يقضيان عمر اليوم جنباً إلى جنب ، صديقين فى الفصل وفى الحقل ، ثم ... ثم فى (العنبر) ، والكبير يوسوس للصغير ويزين له فيندفع فتتفرط أخلاقه فيهوى ، وينقض الستار عن أشياء تصم جبين العلم ، لأن كلا منهما ينطلق يريد أن يشبع رغباته الشريرة على حين قد غفا الرقيب ...

وهكذا نجد أثر التباين فى السن والثقافة واضحاً فى هذه المدارس ، ولا سيما فى القسم الداخلى . ومن الغريب أن النظام الداخلى يوشك أن يعم التعليم الزراعى المتوسط ، فى حين أنه قد ثبت فساده فى التعليم العام

لهذا جاء ناظر المدرسة وإن أوصاله لترعد من شدة الخوف والفَرَق ... جاء ليحول بين الطالب والمدرس ، وبين المدرس وولى أمر الطالب ، يبذل فى ذلك جهد الطاقة ؛ ثم هو يرى أشرف مبادئ التربية الحديثة بأفذع الهجاء وأقسى الألفاظ

هذا الداء ... داء اختلاط الشر بالخير ، حرى به أن يدفع أولى الأمر إلى أن يجتثوا أصول الشر ليذروا الخير وحده ينمو ويسمو فى هذا الوسط . غير أن شيئاً فى المدارس المتوسطة يقوى الشر وحده فيضوى له الخير ، هـذا هو داء (إعادة القيد) وهو أيضاً أثر من آثار (فوضى النظام)

وداء (إعادة القيد) هذا هو نظام احتال به الرئيس مرة ليعيد طالباً إلى مكانه من مدرسته بعد أن رسب سنتين فى فرقته فرفت ؛ فأصبح قانوناً . وهذا الضرب من الطلبة هم الشر المحض الذى يتخلل أثناء المدرسة ، وهم الفئة الباغية التى يجب أن تستأصل من هذه المدارس ليجد الخير سبيله فيها

وانسربت (فوضى النظام) إلى (بيت المدرسين) ، وهو بيت خلفته يد الإصلاح ليسكنه جماعة من المدرسين ليكونوا إلى جانب تلاميذهم ، يراقبونهم ويهيئون لهم وسطاً علمياً أدبياً يستروحون من خلاله نسمات الهداية والرشاد ؛ غير أن الانكماش الذى أرادهم عليه الرئيس نفث فى هذا البيت معنى آخر ، فأصبح خلوة للمدرس ، وحاجزاً بينه وبين تلامذته ؛ أو هو كبعض (تكايا) العهد البائد يسكن فيه المدرس ويأكل ويستمتع بالراحة والهدوء ، لا يشعر بتكاليف الحياة ولا مضض العيش ، دون أن يدفع من ثمن ذلك فى الشهر إلا دريهمات لا تكفى غيره سوى يوم أو بعض يوم ، وهـذا البيت نفسه بث فى المدرس روح الكسل والتراخى والتواكل والحرص ، فما فيه من نشاط جسمى ولا عقلى ، وما فيه من فرحة للنفس ولا لذة للقلب ؛ وإذا قدر لإنسان أن يرقى إلى (بيت المدرسين) ألفى هناك شرازم من المدرسين يزجون الوقت بين الهذر والمزاح والنرد والورق و ... ثم لا يجد سوى بقايا مذكرات قديمة وأوراق متناثرة وجرائد ومجلات هزلية ، أشياء مما تنحط بالعقل والتفكير ، ثم لا يعثر على كتاب أدب ولا رسالة فى علم ولا نشرة زراعية ولا بحث فى موضوع ولا ... ولا ... مما يرقى بعقل المدرس ويفيد الطالب

« للموضوع تكملة »

(*)